

تيمة الموت في شعر الشابي

د/ بن علي قريش

جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)

ملخص البحث :

ما لفت انتباهنا في شعر الشابي كثافة انتشار مفردات الموت بشكل متوازن عبر كثير من نصوصه الشعرية . و هذا يدل على انشغال حاد بالموت باعتباره لغزا ماورائيا و موضوعا للتفكير . فالموت عند الشابي كابوس مرعب لأنه يعني الاختفاء و النهاية و الحتمية التي تحوّل الأحلام الجميلة إلى سراب ، و لهذا تجاور الحديث عن الموت في شعر الشابي مع الحديث عن الحياة . فالخريف بالنسبة للطبيعة موت و الربيع حياة ، و الشيخوخة بالنسبة للإنسان موت ، و الشباب حياة . و هذه الحتمية تجعل الشابي يشعر بالاغتراب الروحي ، فيبحث عن الخلاص من الزمان إلى اللازمان بالحلم و الخيال و الشعر . فالشابي يعيش اللحظة الجميلة و نقيضها .

Résumé

Ce qui attira notre attention dans la poésie de chabbi ce fut l'abondance des vocables sinistre de façon équilibrée a travers ses textes poétiques ce qui inaugure son souci permanent de la mort , symbole du caractère surnaturel, sujet de la réflexion . la mort chez chabbi , est synonyme de la disparition et la fin inéluctable , celle-ci transforme les beaux rêves en mirage de telle sorte que la mort et vie voisinent constamment . pour la nature l'automne constitue la mort, et le printemps la vie, et pour l'être humain, la vieillesse est la mort, et la jeunesse est la vie. Cette fin fait que chabbi ressent la liaison spirituelle. Il se mit a rechercher l'issue salutaire du temporel vers l'atemporel a travers le rêve, l'imaginaire, et la poésie .chabbi vit l'instant et son contraire le bon moment et son opposé.

المقال:

يحيا الإنسان و يموت كما الكائنات كلها ، ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف أنه سيموت ، ولأنه يعرف أنه سيموت ، يرعبه الموت ، و يتوجس خيفة من كل ما يشير إلى الموت . و الحياة و الموت بديهيان ما ورائيان و لغزان قديمان ⁽¹⁾ . على حد تعبير إمانويل سيرو emmanuelle cioran . والمهد (الحياة) يشبه اللحد (الموت) ⁽²⁾ . وسرّ توجه الإنسان إلى الفن هو الخوف من الموت ⁽³⁾ أي الخوف من النهاية و عقبى المآل .

ومفردات الموت حاضرة حضوراً قويا في شعر الشابي في كل مراحل حياته الإبداعية بشكل يسترعي الانتباه مثل مفردات: الموت، الردى، المنون، القبر، الرمس، الأحداث، وغيرها من المفردات التي تحيل الذهن إلى الموت مثل مفردات: الخراب، الدمار، الهدم، الجحيم، المأتم. وهذا الحضور الذهني للموت يعبر عن وعي الشابي الدائم بالموت فينقل مع تجربته الذاتية التجربة الانسانية و الانفعالية .

ويستمد الشابي تجربته، من لحظة الانفعال الراهنة و الرؤيا الشعرية التي تخامر وجدانه ، فتتزاخم في ذهنه أسئلة الحياة والموت و البداية و الانتهاء ، فيحضر الموت و تغيب الحياة. ويستند الشابي في تلك التجربة الى لحظة الانفعال التي تنتابه . فحين يستبد به الحزن والتمزق والضيق والاعتراب ، يحضر الموت ، وتغيب مسرات الحياة :

أرى هيكل الأيام ، يعلو مشيئداً ولا بد أن يأتي على أسه الهدم
فيصبح ما قد شيده الله والورى خراباً ، كأن الكل في أمسه وهم
فقل لي: ((ما جدوى الحياة وكرها وتلك التي تذوي ، وتلك التي تنمو⁽⁴⁾

إن ذات الشاعر تقف وحيدة في مواجهة المصير الفاجع ، والمآل الحتمي ، فيتضخم التمزق والضيق بالخراب الذي هو موت في النهاية . فتصبح الحياة التي مآلها الموت عبثاً لأن الموت لم يكن قتلاً يتم في لحظة قصيرة ولكنه موت نفسي وروحي ووجودي رغم أنه لحظة شعرية ، تقاوم فيها الذات الموت بالشعر .

قال الشابي يتحدث إلى الشعر:

فيك ما في عوالم من ظلام سرمدى، و من صباح وليد⁽⁵⁾

ويهيمن معجم الموت في شعر الشابي ، فيحدّد به ، من خلال الألفاظ التي تنسجم . دلالة مع حالته النفسية وما يخامره من مشاعر و انفعالات فتضغط دلالتها على كيانة ، فيتعمق إحساسه بالمأساة ، فيرتسم الموت كابوساً مرعباً، يعصف بالحلم للحياة ، فتتهيا ذات الشاعر للامتناع عن الاتصال بالحياة خارج (صوت المنون) و (صدى الأحداث) :

إنّ من أصغى إلى صوت المنون

و صدى الأحداث

ليس تستهويه ألحان الطيور

بين أزهار الربيع الساحرة⁽⁶⁾

يستشرف الشابي في الأبيات السابقة زمنا وجوديا ، يؤسسه الموت الذي يعبث باللحن الجميل الذي يحدث الانسجام في الذات وفي الفضاء الذي حول الذات :

كُفَّ عن تلك الأغاني الباسمة
!أيها العصفور

فحياتي ألغيت لحن الأسي⁽⁷⁾

وتفتتح نصوص ديوان (أغاني الحياة) على عوالم من الإبداع الشعري في الموت ، يرافقها وعي وجودي بالزمن المفضى إلى الموت باعتباره لحظة تفضى إلى الانتهاء . فرغبة الشابي في الحياة ، ينغصصها عليه حضور (الأحداث) و (المنون) . إذ يمنحان الذات شعورا مؤلما بتراجيدية الموت ، ويظل مع ذلك مقبلا على الحياة . والإقبال على الحياة غريزة.
يقول الشابي :

إنَّ أبْنَ آدمَ في قرارة نفسه عبْدُ الحياة الصادق الإيمان⁽⁸⁾

وهذه الرغبة في البقاء تضمّر رغبة في الخوف من الموت و الخوف من الموت يحرضه على إشباع معجمه الشعري بأكثر الألفاظ ، دلالة على الموت ، بتداعياته المأساوية . فالشابي ينتمي إلى مدرسة أدبية هي جماعة أبولو التي أشبعت النص الشعري بدلالات الموت . فقد انتزع الشابي من الطبيعة العذراء (الغاب) رموزا للحياة و الموت . فليس في الغاب مشهد يؤلم الشابي و يزعجه و يدخل الرهبة في نفسه من مشهد زهرة لوت عنقها الرياح العاتية:

أو نحلة جرّها التيارُ مندفعاً إلى البحار، تغتّي فوقها النسمُ
أوطائرا ساحرا قد انفجرت في مقتلته جراح جمّة و دم⁽⁹⁾

وليس في الغاب مشهد رامن للحياة كما الزهور. تنبذ التحول و الصيرورة ، و (يعانقها شوق الحياة) كما يعانق الشابي . يقول:

ليتني كنتُ مثلَ الزهور بلا حياة واجمة⁽¹⁰⁾

وفي قصيدة (يا موت)⁽¹¹⁾ تقبع دلالات أخرى ، أهمها أن الموت ما زال يمارس حضوره في فكر الشابي و في وعيه الباطني . والحديث المباشر الى الموت يتم على أن الموت حاجة وجودية ، ومأساة وجودية في آن معا لأن ذات الشاعر تواجه تلك المأساة بمفردها :

يا موت ! ماذا تبتغي مِنّي وقد مرّقت صدري
ماذا تودّ ، وأنت قد سوّدت بالأحزان فكري
و تركتني في الكائنات أئن مفردا بإصري

وأجوب صحراء الحياة ،أقول:((أين تراه قيري)) !
ماذا تؤد من المعذب في الوجود بغير وزر؟⁽¹¹⁾.

و إذا كان لا مناص من الموت ، فلا مناص من عدم الخوف من الموت ، على الشباب و على
الربيع ، بكل دلالتهما :

والشباب الحبيب شيخوخةً تسعى إلى الموت في طريق كؤود
والربيع الجميل في هاته الدنيا خريفٌ يذوي رفيق الورود⁽¹²⁾

وعلى هذه الرؤية التي يستوى فيها ، بالموت ، الشباب بالشيخوخة ، والربيع بالخريف ، يصبح
الموت يقينا مطلقا ، فيتقاطع ذلك مع نفس الشابي القانطة التي أعيها التفكير في المال و البداية
والنهاية :

قضيت أدوار الحياة مفكرا في الكائنات معذبا مهموما
فوجدتُ أعراس الوجود مآتما ووجدتُ فردوس الزمان جحيما⁽¹³⁾
فالشابي يفقد الإحساس بالحياة في لحظة انفعالية ضاغطة .

و((الموت يعني غياب الإحساس))⁽¹⁴⁾ ، فيتردى الشابي في قاع السوداوية التي غذاها إحساسه
الرقيق ، و رومانتيكيته التي عاشها ، تجربة في الحياة ، وإنتماء شعريا . إذ أصبح الحلم بالقضاء على
الكون ، احتفاءً بوعيه الدائم بالموت وانتشاءً بلحظة الغياب :

لو كان هذا الكون في قبضتي ألقيته في النارِ نارِ الجحيمِ
ما هذه الدنيا وهذا الوري و ذلك الأفق وتلك النجوم؟ !
النارُ أولى بعبيد الأسي ومسرح المؤت وعش المموم⁽¹⁵⁾

وانتهى هذا الحضور القوي للموت في ذهن الشابي إلى ((تمزق ما ورائي وجودي))⁽¹⁶⁾
و موت أبيه كان((صدمة صاعقة زعزعت كيانه ونبهته إلى فاجعة المال و المصير))⁽¹⁷⁾.

فقد رأى بأم عينيه فعل الموت في أبيه .خمدت أنفاسه،واستكان لقهر الموت ،والكائنات كلها تحزّ
صاغرة للموت.الأم تبكي طفلها الذي اختطفه الموت بعنف،حتى الطيور، تحرس،(ويحمد النشيد
بصدرها)،حين ترى(طيف المنون).

فهذه الصورة ترسم ملامح الفاجعة، وهي لحظة شعرية. الشعر فيها إيقاع للمراثي،

قال الشابي في قصيدة (يا شعر): أَرَأَيْتَ شُخْرُورَ الْفَلا، مترنما بين الغصون

جَمَدَ النَّشِيدُ بِصَدْرِهِ،لما رأى طَيْفَ الْمُنُونِ

أَرَأَيْتَ أُمَ الْطِفْلِ تَبْكِي ذَلِكَ الطِّفْلَ الْوَحِيدَ

لما تناوله بعنف ساعد الموت الشديد⁽¹⁸⁾؟

لم يكن الشابي متأهبا للانفتاح على عالم سديمي لأنه كان مازال شابا يحلم بنضارة الحياة. فالموت عنده يعني الغياب الأبدي عن الحياة و الاختفاء القسري و السكون المطلق والصمت الرهيب. والموت قهر للحضور و الحركة و الاكتحال بجمال الغاب، فضاء شعريًا، يتحرر فيه من قيود المجتمع . فتلبسه الانكسار، وأذعن لجبروت الموت، زمن لحظة الانكسار، و انتهى الازعان إلى الاقرار بالحتمية ، فترجى الموت لأن النفس تشبعت بالقلق والضيق و الاغتراب .

فلم يعد بالإمكان الانتصار لأغاني الحياة:

جَفَّ سِحْرُ الحياة يا قلبي الباكي فهيّا نجرب الموت : هيّا⁽¹⁹⁾

وهكذا استمر سؤال البداية و النهاية واستمر معه تدفق الاحساس بالاغتراب :

نَحْنُ نَمْشِي ، و حولنا هاته الأكوأ نَمْشِي... لكن لأية غاية

نَحْنُ نَشْدُو مع العصفير للشمس وهذا الريح ينفخ نايّة

نَحْنُ نَتَلُو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الرواية

هكذا قلْتُ للريح فقالت : ((سَلْ ضمير الوجود: كيف البداية ؟⁽²⁰⁾

إن الاندفاع في استحضار الموت ، ذهنيا ، من خلال سؤال البداية و النهاية إقرار بحتمية المصير،

ولكن الشابي رفض أن يعيش في ((دنيا ميتة)) قبل المصير المرتقب بالموت :

ويعيش في كونٍ عقيم ، ميّت قد شيدته غباوة الأحقاب⁽²¹⁾

ولهذا بدأ يضمحل الإحساس بالوجود في الحياة ، وتملكه الشعور القوي بالاغتراب . و الاغتراب،

كما يعرفه إيريك فروم Eric.f: ((.. نمط من التجربة يعيش فيها الانسان نفسه كغريب ... انه

اصبح غريبا عن نفسه ، انه لم يعد يعيش نفسه كمركز لعالمه))⁽²²⁾

قال الشابي :

إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب⁽²³⁾

أصبحت الحياة اغترابا، فقد فيها الشابي إحساسه بالوجود، و مركزه في صنع أفعاله وأحلامه

فأصبح الموت حياة أخرى، يستعيز بها عن المفقود الممكن، و الحياة من غير أحلام حياة ميتة

أخرى:

والحياة التي تحرّ لها الأحلام موتٌ مثقلٌ بالقيود⁽²⁴⁾

والموت، على حدّ تعبير هايدجر:

((هو الممكن الذي يجعل بقية الممكنات كلها غير ممكنة))⁽²⁵⁾

والحياة ((وكل ظاهرة [في شعر الشابي] تحمل المعنى و المعنى الآخر))⁽²⁶⁾، و قد بات معروفا أنَّ الخطاب الشعري هو ذاك الخطاب ((الذي يقول شيئاً و يعني شيئاً آخر))⁽²⁷⁾، فالحديث عن الموت ، يقتضي الحديث عن الحياة.

ذلك أن الانسجام يولد من رحم التناقض ، والعالم كله مكون من عناصر متقابلة⁽²⁸⁾ ، كما يرى ك. صابنة k.sabina: الحياة والموت والنور و الظلمة،والليل والنهار والمهد...واللحد والشمس و القمر و الربيع و الخريف و البداية و النهاية... إلخ .

و شعر الشابي يزخر بطاقة من الإيجاء والتضمين الدلالي قائمٌ على التحول من الرهبة من الموت إلى الرغبة في الموت في لحظة شعرية ، يمتنع فيها الشاعر عن ترويع الذات . فيشخص الموت في أبهى صورة كما ارتسم في مخيلة الشابي ، فطفًا على خطابه الشعري.

وكأنه يقول: ((سوف أموت و أعود إلى الحياة من جديد))

يقول الشابي في قصيدة (إلى الموت)⁽²⁹⁾:

إلى الموت ! يا ابنَ الحياة التعميس	ففي الموتِ صوتُ الحياة الرخيم
إلى الموت ؟ إن عذبتك الدهور	ففي الموتِ قلبُ الدهور الرخيم
إلى الموت ! فالموتُ روحٌ جميل	يُفرِّقُ من فوق تلك الغيوم
ففي عالمِ الموتِ تنمو الحياة	رداء الأسي ، و قناع الظلام

إن الموت في الأبيات السابقة لم يكن انتهاء للحياة و لا انتهاء وجوديًا لأن الذات انتصرت على الخوف من الموت ، وانتصرت على الفناء بالخلود:

هو الموتُ طيفُ الخلود الجميل	و نصفُ الحياة الذي لا ينوح
هنالك...خلف الفضاء البعيد	يعيش المنونُ القويُّ الصبوح
يضمُّ القلوبَ إلى صدره	ليأسو ما مضى من جروح
ويبعثُ فيها ربيعَ الحياة	و يُبهِجُها بالصباح الفروخ ⁽³⁰⁾

ينتهي عطب الحياة بالموت. وتتحلل الذات من سجنها ، و تعود إلى أصلها العلوي ، حرة غير سجيئة . وتلك كانت أمنية الشابي :

لئني، لم أزل . كما كنتُ ضوءاً شائعاً في الوجود غيرَ سجين⁽³¹⁾

و يحتفي الشابي بالانتهاء من الحياة إلى الموت، و يؤسس هذا الاحتفاء لارتقاء الذات، و خلاصها من الأرضية ، بكل دلالاتها ، و انتشاء الروح بعودتها إلى برجها العاجي . إذ يقول الشابي في قصيدة: (نشيد الجبار)⁽³²⁾ أو (هكذا غنى بروميشوس):

أما إذا حَمَدْتُ حَيَاتِي ، و انْقَضَى
وَحْبا لَهَيْبُ الكَوْنِ في قلبي الَّذِي
فَأَنَا السَّعِيدُ بِأَنِّي مُتَحَوِّلٌ
لأَذْوَبٍ في فَجْرِ الجمالِ السَّرْمَدِيِّ
عُمْرِي و أَخْرَسَتِ المنية نَائِي
قَدْ عاشَ مِثْلَ الشُّعْلَةِ الحمراء
عن عَالَمِ الآثامِ والبغضاء
وَأَرْتَوِي مِنْ مِنْهَلِ الأضواءِ

إنَّ استدعاء الشابي للرمز الأسطوري (برومتيوس) رمزا شامخا بعودة الحياة بعد الموت ، بالتجلد و التحدي و اليقين بهذا التحول من الحياة إلى الموت و من الموت إلى الحياة ، رافقه وعيٌ بهذا التحول الممكن ، من (عالم الآثام والبغضاء) إلى عالم، يَنعمُ فيه بالسعادة و السكينة و الهناء الروحي :

إلى الموت ، لا تخشى أعماقه فففيها ضياءُ السماءِ الوديع⁽³³⁾

هذه الصيرورة الوجودية للإنسان ، تنسجم مع اللحظة الشعرية و الشعورية التي (تفجرت) في قلب الشاعر ، و تناغمت مع لحظة الانتشاء التي أبداها في الأبيات السابقة.

وتوحي هذه الرغبة الاستعجالية عند الشابي ، في التحول من وضع إلى وضع آخر ، أي التحول من الحياة إلى الموت بأن الشابي كان على وعي حاد بالصيرورة الوجودية للكائن البشري ، وأنَّ حبَّ الموت يمكن أن يكون غريزة كغريزة حبِّ الحياة !، و لذلك، فلا خوف على الحياة وعلى الانسان من الموت لأن الموت ليس نهاية مطلقة . فالموت كما يرى ميخائيل نعيمة ((درب من دروب الحياة)) و لهذا لم يبقى سؤال الموت مؤسسا على الخوف القبلي من الموت. فالشابي ، تهيأت ذاته للموت باعتباره حتمية وجودية ، شرعت له الأديان السماوية في نصوصها المقدسة ، فامتألت نفسه بهذا التهيأ النفسي و الفكري و لكن توقعات الموت هو الذي يحدث الرعب والفرع و الرهبة في نفوس البشر ، و لهذا يرى أمل مبروك أنه ((ليست خشيت الموت من الحكمة الصحيحة في شيء .فما يدريك ألا يكون الموت خيرا عظيما ، ذلك الذي يلقاه الناس بالجزع كأنه أعظم الشرور))⁽³⁴⁾، و هو لا يعدو أن يكون انتقالا من حياة المهد إلى حياة اللحد.

واللحد تقويض للحياة المطلقة ، و تمهيد للإيمان بيقينيات المطلق ، فحين ينشد الشابي اليأس والقنوط ، يستدعي على عجل فكرة الحضور و الغياب ، الحضور بالولادة و الغياب بالموت ، والموت يغزو الحياة بحلمها فتتلاشى في نفس الشابي الأمائيّ و الأحلام .وذلك ما بشر إليه البيت الثالث من الابيات الثلاثة السابقة :

فقل لي : ((ما جدوى الحياة و كرمها و تلك التي تذوي ، وتلك التي تنمو))

فالشابي ، يتخذ من فكرة المساواة بين الحياة و الموة أو لنقل تدنيس الحياة على حساب الموت ! ولهذا كان أقل احتفاء بالحياة على الرغم من أنه كان يملك رؤية حلمية كبرى في لحظة الانتشاء الروحي ، لأنه كان يخضع للحظة الشعورية الراهنة ، فتطغى حدة الفجعية أحيانا ، و تنتفي أحيانا أخرى . فهو يعيش اللحظة الانفعالية و نقيضها ، و يحمل في قلبه الحياة و الموت نتيجة إحساسه بضيق فاجع ((و ما الرومانسية في الأصل سوى شعور بضيق فاجع ، تجيش به صدور تحمل بالاتساع . فقلق الشابي هو ما ينتاب الأرواح الكبيرة في كل زمان و مكان عندما تقعدها عن الفعل تفاهة الأشياء وتواصل الوحدة القايصة التي منها تبدأ و إليها تؤول))⁽³⁵⁾ .

و بهذه التناقضات الانفعالية في الموقف ، يعبر الشابي عن مأساته الشخصية بحضور الموت وما يكشفه من غموض في مجاهدة الموت أو الإقبال عليه . وهو ليس تناقضا في الموقف بقدر ما هو تعبير عن حالة شعورية راهنة . ففي النص الواحد ، تبرز ذات الشاعر ، الحالم بالمستقبل ، استشرافا و انتشاء بالذات، و الذات أخرى قانطة و بائسة استبد بها الاغتراب ، فأسكت فيها (أغاني الحياة) ، وأضحت من خيالها الرؤية الحلمية . و الاغتراب حالة شعورية و مضمون فكري ووجودي و روعي في شعر الشابي ، يمر عبره مخزون رؤيوي و معرفي وتراكم دلالي عن الموت ، وخطاب الموت ، لا يميز هن طريق اللغة . فقط . ولكنه يميز عبر الإيحاء و الرمز و الأساطير . أيضا . فقد كشف لنا الشابي عبر هذه الآليات الشعرية أنه ((كان مصابا بداء الوجود ، يثور فيه الشوق إلى الحياة . ويتردى من دونها بعاهات الواقع و مبادلته حتى أصابه ضرب من العياء و اليأس ، و بات يغير عن الشيء ، وكأنه يعبر عنه و عن ضده في آن معا [الحياة و الموت] ، يسفر وجهه و يضم وجهه ... لا يعادل شغفه بالحياة إلا خوفه من الموت ... و حول ذلك كله ، يطيف شبح الزمن . ذلك الرحم العجيب الذي يحتضن الحياة و الموت))⁽³⁶⁾ .

و الشابي ، كان ، بهذه الثنائية المتجاورة (الحياة و الموت) ، ((يعبر عن اللحظة القائمة و اللحظة القادمة و مظاهر الكون كلها تعاني داء الوجود ... و الأشياء موجودة في اللحظة الواحدة))⁽³⁷⁾ و اللحظة القادمة أي الموت أو النهاية هي التي تنكد على الشابي حياته ، و تشعره بلا جدوى الحياة ، و الانكسار أمام الموت :

و الربيع الجميل في هاته الدنيا خريف بذوى رفيف الورد⁽³⁸⁾

حديث عن الحياة و الموت أي الصيرورة التي ينتهي إليها مآل الانسان ، و حديثه عن الربيع هو . أيضا . حديث عن الحياة و الموت أي الزمن الذي يولد الفاجعة بالنهاية و البلى ، و يزرع اليأس و القنوط و يجعل الإنسان ، يترقب الموت و الترقب المستمر للموت شكل آخر من

أشكال الموت . و هذا العطب الذي يحدثه الزمن بالهلاك و الموت و النهاية ، يجعل الشابي يشعر بالكآبة و الاغتراب ، فيقنط و تنتهي به هذه الحالة الشعورية إلى مأساة ، عبّر عنها في مجموعة من النصوص لعل أبرزها ، قوله :

مالي يضيق بي الوجود وكل ما حولي رحيب
مالي وجمت وكل ما في الغاب مغرّد طروب
مالي شقيت وكل ما في الكون أخاذ عجيب⁽³⁹⁾

ففي شعر الشابي ، يتردد كل لفظ سلبّي عن الموت و مظاهر الكون كلها تحمل في ذاتها ، ملامح الحياة و الموت ، كان الشابي يتأمل تلك المظاهر و يعاني بقرحة و عذاب المصير المحتوم :

قضيت أدوار الحياة مفكراً في الكائنات، مُعذّباً مهوماً
فوجدت أعراس الوجود مآثماً ووجدت فردوس الزمان جحيماً⁽⁴⁰⁾

وفي قصيدة (في ظل وادي الموت) ، ينتهي الشابي إلى الاستسلام بالمصير الذي تنتهي إلى الفاجعة التي عاشها في الحياة ، و أضناه منها طول العذاب الذي لم يستطع أن يقهر بالأحلام والتسامي و بالأحلام.

جفّ سحر الحياة ، يا قلبي الباكي
فهياً نجرب الموت. هياً⁽⁴¹⁾

و الأحلام الجميلة التي لم يستطع أن يتسامى بها إلى حدّ الرؤيا الشعرية التي اختزنها خياله ، تحولت إلى حلم آخر ، استحضر به ماضيه الروحي قبل ان يفد إلى هذه الدنيا فيصبح سجيناً فيها ، يسري عليه لغز الحياة و الموت و الزوال بالموت :

ليتني لم أفد إلى هذه الدنيا ولم تسبح الكواكب حولي
ليتني لم أزل كما كنت ضوءاً شائعاً في الوجود غير سجين⁽⁴²⁾

إن الشابي لا يحتفي بمباهج الحياة الا بقدر ما تنتشي بها نفسه بلحظة انفعالية عابرة ، ثم سرعان ما تشخص صورة الموت في خياله لتعكر عليه تلك اللحظة الزمنية الجميلة التي تسامى فيها الحبّ وتسامت فيها الأحلام الراهنة ، و المتهم هو الموت أي الزمن الذي يعبث بكل لحظة جميلة ، يعيشها الشعاع أو يستحضرها من ماضيه الطفولي الذي يعجّ بلحظات النشوة ، وتُحارب الفرح بالجمال و الحبّ :

أيها الموت، أيها القدر الأعمى
ودعونا هنا تغني لنا الأحلام
قفوا حيث انتم أو فسيروا
والحب والوجود الكبير



وإذا ما أبيتُم فاحملونا ولهب الغرام في شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر وبالسحر والصبا في يدينا⁽⁴³⁾

إن الزمن الذي يعبث بمباهج الحب و الجمال ، ويحوّلهما إلى سراب و بلى هو الذي يجعل الشاعر أبا القاسم الشابي ينكفء على ذاته بالعزلة و الكآبة و الشعور بالاغتراب ، لأن الموت ظلّ ماثلاً في نفسه وأصبح موضوعاً للتفكير . و هذا ما عمّق شعوره بالاغتراب الروحيّ ، فتأكد هذا الشعور بتأثير ذلك التفكير :

مهما تضاحكت الحياة فإنني أبداً كئيب
إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب⁽⁴⁴⁾

وهذا الشعور العميق الذي أبداه الشابي إزاء عجزه عن مواجهة مصيره الفردي المحتوم ، فلم يكن أمامه بدّ من أن يرثي ذلك المصير ، و لأن الموت كان موضوعاً للتفكير ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فقد وظف الشابي كلّ وسائل التعبير التي يرسم بها صورة الموت ، فانتقى من أجل ذلك الصورة و الرمز و (اللفظة النفسية) المشحونة بدلالات الموت أو تنتمي إلى حقل دلالي هو الموت أو يحيل على الموت بالإيحاء أو الرمز ، و الزمن ((باعث على التفكير ، داع إلى التأويل لأنه يخفي أكثر ممّا يقول بل لا يكف عن القول أبداً))⁽⁴⁵⁾ . و الألفاظ في الرمز ((...محمّلة بدلالات جديدة غير التي وضعت لها أصلاً))⁽⁴⁶⁾ ، و قد سار الشابي في هذا المنحنى الرومانتيكي الذي ينسجم مع حالته الشعورية التي تنتهي إلى الافضاء بكل ما يموج في عالمه الداخليّ من رؤى شعرية عن الموت و في يقينه ((أنّ اللغة مهما بلغت من القوة الذي يشمل خلجات النفوس الانسانية و أفكارها و أحلام القلوب البشرية و آلامها و كل ما في الحياة من فكر و عاطفة و شعور))⁽⁴⁷⁾ ، و لذلك ، لجأ الشابي إلى ما به يستطيع ان يشبع النصّ الشعريّ بصور ، تبرز انفعاله الراهن حيث يسبّد به التوجس من الموت باعتباره كابوساً مرعباً ، يطارد الإنسان أنّ ارتحل ، ويفسد عليه انتشاءه ، ب (ألحان الطيور ، ... و ابتسامات الحياة) ، و القبور شاهدة على أنّ الموت يأتي على الجميع ن و يخرس من تستهويه ألحان الطيور و مباهج الحياة :

إن من أصغى إلى صوت المنون... وصدى الأجداث

ليس تستهويه ألحان الطيور

بين أزهار الربيع الساحرة

وأبتسامات الحياة،.. السافرة

عن جلال الله !

بثست الأفراح ، أفراح الحياة

إنها أحلام! (48)

إن كثافة حضور الموت في شعر الشابي عنوان على كثافة حضور الاغتراب و الحزن و الكتابة في نفس الشابي . فهو لا يفرح إلا ليكتتب ، و لا يكتتب إلا ليزداد اكتتابه تضخما ، و مع تضخم الاكتتاب تطفو إلى سطح خطابه الشعري سوداوية ، تتم عن توجسه من الزمان و الصيرورة و النهاية و الاختفاء ، و الانقطاع عن الاتصال بالخلود . فسعى إلى معانقة اللازمان بالخيال و بالحلم و بالرؤى الشعرية ، يواجه بها العبث و الفناء و كأنه يقول :أرفض أن أحيا ميتا على أن أموت و أنا حي بالخلود.

هوامش البحث:

- 1- انظر ،jaen fontain،الموت و الانبعث في أدب توفيق الحكيم، ترجمة محمدقويعة ،الدار التونسية للنشر 1984م ص7.
- 2- أنظر المرجع نفسه.
- 3- أنظر المرجع نفسه.
- 4- وردت هذه القصيدة في ديوان (أغاني الحياة)للشابي بدون عنوان و بهذا الشكل (؟) .الطبعة الأولى دار صادر.بيروت.لبنان 1999م.ص.146
- 5- قصيدة (قلت للشعر) ص107
- 6- قصيدة (أغنية الأحران).ص.58
- 7- قصيدة (القصيدة نفسها).ص.57
- 8- قصيدة (الاعتراف).ص.218
- 9- قصيدة (الأبد الصغير).ص. 129
- 10- قصيدة (يا شعر) ص.51
- 11- قصيدة (يا موت). ص. 119
- 12- قصيدة (طريق الهاوية).ص.136
- 13- قصيدة(صوت تائه).ص.101
- 14- أمل مبروك، فلسفة الموت ،دار التنوير.بيروت.لبنان.الطبعة الأولى .2011م.ص44
- 15- قصيدة(زوبعة في ظلام).ص.217.
- 16- عبد السلام المسدي ،قراءات الشركة التونسية للتوزيع.1981م.ص.51

- 17- المرجع نفسه و الصفحة نفسها.
- 18- قصيدة (يا شعر).ص.49
- 19- قصيدة (في ظل واد الموت).ص.173
- 20- قصيدة (في ظل واد الموت).ص.172
- 21- قصيدة (الدنيا الميتة).ص.228
- 22- الاغتراب عند ايريك فروم .ترجمة محمد حسن حماد. المؤسسة الجامعية للدراسات و التوزيع و النشر. الطبعة الأولى 1995م.بيروت .لبنان.ص.37
- 23- قصيدة(نشيد الأسى).ص.106
- 24- قصيدة(طريق الهاوية).ص.136
- 25-أنظر،أمل مبروك ، المرجع السابق.ص.97
- 26-إليا الحاوي،الطبيعة و الزمن أو رموز الحياة و الموت في شعر أبي القاسم الشابي.مجلة الفكر عدد خاص.أبو القاسم الشابي .العدد4. 1975م.تونس.ص.101
- 27- Michel Riffaterre,(sémiologie de la poésie) edition,seuil,1983,p11.
- 28- أنظر Roman.jakbson , huit questions de poétique , Edition du seuil 1977.p31
- 29-الديوان .ص.97.
- 30- الديوان .ص.98
- 31-القصيدة (الأشواق التائهة)ص.142
- 32-الديوان .ص.215
- 33-قصيدة(إلى الموت) ص.98
- 34- دار التنوير ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2011نص.44
- 35- عبد العزيز قاسم ، الشابي بعد الأربعين سنة ، مجلة الفكر، العدد 4 ، عدد خاص ، أبو القاسم الشابي ، 1975، ص.95
- 36- إليا الحاوي ، الطبيعة و الزمن أو رموز الحياة و الموت ، الفكر ص100 .
- 37- المرجع نفسه ،ص101 .
- 38- الديوان نص45 .
- 39- قصيدة (نشيد الاسى) ، ص106 .
- 40- قصيدة (صوت تائه) ، ص101 .
- 41- الديوان ،ص173 .
- 42- الديوان ، قصيدة (الأشواق التائهة) ، ص142 .
- 43- الديوان ، قصيدة (أغاني السكرى) ، ص198 .

- 44- - قصيدة (نشيد الاسى) ، ص106
- . Paul Ricœur, Le conflit des interprétations, éd , Seuil, Paris, 1969, p32.-45
- Jean Cohen - Le Haut langage, théorie de la poéticité, José , sorti, 46
1995, p.133. -
- 47- أبو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الدار التونسية للنشر ، النشرة الثانية ، 1983 ،
ص.25
- 48- الديوان ، ص228 .